# التعقيد فى شعر المتنبى

قرأت فى مجلة « الكاتب المصرى » مقالا للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين(١) ، ألم فيه بالتعقيـد فى شعر المتنبى ، وحاول أن يرده إلى أسبابه الأصيلة فى نفس الشاعر ، ولكنه فيما يخيل إلى ـ لم يبلغ ما أراد ، بل لعله أن يكون قد مال عنه ؛ لأنه سعى إليه من غير وجهه

فالتعقيد لم يكن عند المتنبى طبيعة راسخة ، ولا صفة ملازمة ؛ فتتصل بنفسه ، وتستمد منها الوجود والثبات ، ولكنه كان عرضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوته ؛ فيبقى ما بقيت ، ويمضى على أثرها حين تزول . وليس المتنبى فى هـذا بدعاً ولا وحيداً ؛ فما من شاعر ولا كاتب إلا له منه حظ قليل أو كثير . غير أن منهم من يحذر النقـاد ، ويحفل بالرأى الأدبى العام ؛ فينحى على معقداته بالتهذيب أو الحذف ، فلا يصدر عنه إلا الواضح السمح ، أو الآخذ من الوضوح والسماحة بنصيب . ومنهم من لا يقيم وزناً للنقـاد ولا للرأى الأدبى العام ؛ فيصدر عنه كل ما يقع له ، لا يبالى تعقيداً ولا سخفاً ولا إسفافاً . وإذا كان حظ الشاعر من التعقيد أكبر فلأنه يتقيد فى الشعر بكثير مما لا يتقيد به الكاتب فى النثر . وأسباب التعقيد كثيرة ، يرجع بعضها إلى الشاعر نفسه : كنضوب طبعه ، وفتور حسـه ؛ لملل ، أو إعياء ، أو اختلال مزاج ، أو نحو ذلك . ويرجع بعضها الآخر إلى الموضوع الذى يعالجه : كجدته ، ودقة مسالكه ، وصعوبة تناوله ، واستبهام حقائقه ، وما يشبه ذلك . وليس يعنينا على كل حال أن نتتبع هنا أسباب التعقيد بالاحصاء والبيان ؛ فلسنا منها الآن بسبيل إلا على قدر ما يتطلب الموضوع ؛ فلنقتصر على هذا القدر : لا نتوسع ولا نزيد .

والأستاذ الدكتور يرى أن التعقيد فى شعر المتنبى يرجع بعضه إلى حرص كان عنـده ، ويرجع بعضه الآخر إلى أمل كان يرجوه ، لكنه أخفق فيه .

فأما الحرص فلست أدرى على التحقيق ما مراده به ؟ أتراه يريد أن يقول مع القائلين : إن المتنبى كان بخيلا ، يحب المال ، ويحرص على جمعه وادخاره ، ثم يزيد حضرته أن هذا البخل كان متمكناً منه ، وشديد الالحاح عليه ، حتى لقد كان له عمل فى فنه ، وسلطان على مواهبه ؟ أم تراه يريد أن الشاعر كان لشعره محبا ، وبه مفتوناً ، وأن ذلك كان يغريه بالابقاء عليه ، والضن بكل ما ينتج منه ، دون تفريق بين المعقد وغير المعقد ؟ وأياما يكن المراد الذى يقصد إليه الأستاذ الدكتور ، فلا شك أن البخل بالمال أو الحرص على الشعر لا يعلل التعقيد نفسه ، ولا يكشف عن سر التورط فيه ، ولكنه يعلل الاعتزاز بالشعر المعقـد ، ويكشف عن سر الابقاء عليه .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢ ( نوفمبر ١٩٤٥ ) .

وشيء آخر : أن البخل بالمال ، أو الحرص على الشعر لا يستطيع وحده أن يهون التعقيد على الشاعر ، ويرخص له فى اصطناعه وإذاعته فى النـاس ؛ فقد يحب المرء آثاره الأدبية ، ويود جاهداً لو أتيح له الابقاء عليها كلها ، ولـكن يمنعه من ذلك خوف النقاد ، أو الرغبة فى استرضاء القراء .

ولم يكن المتنبي بعد هذا كما يصوره بعض الرواة ــ شحيحاً ، جماعاً للمال ، يشـتد فى جمعه والحرص عليه ، ولا يرى بأساً أن يفرط فى سبيله ببعض مالا يجمل بالرجل الأبى الـكريم أن يفرط فيه ؛ فليس فى المعروف من سـلوكه مايؤيد ذلك أو يشير إليه ، وإنما تلك فيما أعتقد فرية افتراها عليه بعض خصومه والمنافسين له ، كما افتروا عليه غيرها من العيوب . فالرجل الذى ينزع منازع العظمة ، ويتشبه فى خروجه بأصحاب السلطان ، فلا يركب إلا فى موكب من المماليك ، يحفون من حوله وهم مدججون بالسلاح (١) . والرجل الذى يفـد على بغداد ، فيذهب بنفسه عن مدح الوزير المهلبي ؛ لاشتهاره بالسخف ، وتولعه بالمجانة والهزل (٢) ، ثم يتودد إليه سرى من تجارها الأدباء ؛ فيخدمه ، ويكرم مثواه عسى أن يمدحه ، فلا يفعل ، ويقول له فى الاعتذار من ذلك : لو كنت مادحاً تاجراً لمدحتك (٣) ، ثم يسأله أبو إسحق الصابى أن يمدحه بقصيدتين ، ويجعل له عليهما خمسـة آلاف درهم ، ويوسط بينهما فى ذلك رجلا من وجوه التجار ؛ فيقول له : قل لأبى إسحق : ما رأيت بالعراق من يسـتحق المدح غيرك ، ولا أوجب على فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير المهلبي ، وتغير عليك ؛ لأننى لم أمدحه . فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعرى عوضاً (٤). والرجل الذى يدعوه الصاحب ابن عباد إلى زيارته ، ويعده أن يشاطره جميع ماله ؛ فلا يستجيب له ، ولا يرد عليه كتابه(٥) ، والرجل الذى يستزيره عضد الدولة وهو عند ابن العميد ؛ فيأبى ، ويرغبه ابن العميد فى المسير إليه ، بما يصف له من سخاء الملك وجزالة عطاياه للـكفاء وأصحاب المواهب ؛ فيقول له : إن الذى أجود به على الملوك من الشعر خير مما يجودون به على من المـال ؛ لأن شعرى خالد ، وماهم زائل ، ثم يقول : إنى امرؤ ضجر ملول ، وأريد أن يـكون إلى الأمر فى الاقامة والظعن ، لـكن الملوك يستبدون بى ، ويأبون على الخروج حين أريد ؛ فأضطر إلى مغاضبتهم والرحيل عنهم على أقبح الوجوه ، ثم لا يزال مصراً متشبثاً ، حتى يكتب ابن العميد فى ذلك إلى الملك ، ويرد جواب الملك أن الشاعر حر : يقيم ما شاء ، ويرحل متى شاء(٦).

الرجل الذى يعمل بعض هذه الأعمال ، ويقول بعض هذه الأقوال ــ لا يمكن أن يكون بخيلا ، ولا يصح أن يوصم بالبخل وفى الدنيا إنصاف ، وللكلام معان يؤديها ويقصد به إليها .

والاخفاق فى الأمل لا أرى له كذلك أثراً فى التعقيد عند المتنبي ؛ فالمفهوم أن الأمل الذى هام به ، وشق فى طلبه ، وأطال الحديث عنه منذ كان شاباً يافعاً ، إنما كان ولاية السلطان . والمعروف كذلك أنه لم يستيئس منه ، وينصرف عنه إلى غير رجعة إلا عند عضد الدولة بن بويه فقد أشار إليه فى مدح دلير وابن العميد إشارة مبهمة ، لـكنها تدل على كل حال أنه حتى ذلك

---

(١) الصبح المنبي ١ : ١١٣ (٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٣١٠ (٣) النجوم الزاهرة ٤ : ١٧٣
(٤) معجم الأدباء ١ : ٣٤٦ (٥) الصبح المنبي ١ : ١٨٠ (٦) خزانة الأدب ٢ : ٣١١

الوقت كان لا يزال يذكره ، ويفكر فيه ، ويتحدث عنه . قال من قصيدته فى مدح دلير .

درينى أنل ما لا ينـال من العـلا　　فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين لقيـان المعـالى رخيصـة　　ولا بد دون الشهد من إبر النحـل
حذرت علينـا الموت والخيـل تلتقى　　ولم تعـلمى عن أى عاقبـة تجـلى

وقال من قصيدة فى مدح ابن العميد :

صغت السوار لأى كف بشرت　　بابن العميـد واى عبـد كبرا
إن لم تغثنى خيـله وسـلاحه　　فتى أقود إلى الاعادى عسكرا ؟

فلو كان للاخفاق عمل فى تعقيد شعره كما يقول الأستاذ الدكتور لوجب أن يكون المعقد فى شعره عند عضد الدولة أكثر منه فى شعره قبل أن يرحل إليه ، فقد أصبح له منذ ذلك الحين عاملان اثنـان بدل عامل واحد : أحدهما ثابت ملازم ، وهو الحرص أو البخل . والآخر طارئ جديد ، وهو الاخفاق فى ولاية السلطان . لكنا إذ نرجع إليه لا نرى فيه شيئا من التعقيد ، مع اختلاف نوعه ، وتعدد موضوعاته ، وكثرة مقداره بالاضافة إلى المدة القصيرة التى قيل فيها ؛ فقد نظم وهو عند عضد الدولة ست قصائد طوالا إحداها أرجوزة ، ونظم قصيدة سابعة فى سبعة أبيات ، وتناول فيها من الأغراض الغزل ، والمدح ، والتعزية ، والحكمة والوداع ، والوصف المنوع الموضوعات .

ماذا عسى إذاً أن يكون سبب التعقيد فى شعر المتنبي ؟ الذى يبدو لى أن سببه عنده هو سببه عند غيره : لا تمايز هناك ولا شذوذ . وإذا كان حظ شعر المتنبي منه كبيراً فلأنه كان يغالى بنفسه ، ويعتز بمواهبه ، حتى ما يكاد يفكر فى جمهوره ، أو يحفل بنقاده ، كما يتمثل فى المحاورات التى كانت تدور بينه وبينهم بعض الأحيان ، وكما يقول فى بيته المشهور :

أنام ملء جفونى عن شواردها　　ويسهر الخلق جراها ويختصم

ثم إنه كغيره من شعراء العقل والحكمة كان يطلب المعانى العميقة ، التى لا تنال بغير المصابرة والكد ، ولا تستقيم إلا بعد المداورة وطول الاحتيال . وكان إلى جانب ذلك يحرص على أن تكون عبارته فخمة ، وألفاظه جزلة ، وموسيقاه مجلجلة ، فيها قوة ولها رنين .

ويرى الأستاذ الدكتور بعد ذلك أن المتنبي من أجدب الناس خيـالا ، وأقلهم تصوراً . وهو رأى لا نوافق عليه ، ولا نرى فى شعر الشاعر ما يعززه . ولست أعنى هنا شعر الوصف وما يشبهه مما يكون للتخيل فيه مجال فسيح ، ولكننى أعنى مع ذلك شعر الحكمة أيضا ، حيث يغلب التفكير المجرد ، ويأخذ الغرض على نمط يقل فيه تصنيع الخيال . فهو فى هذا الغرض مثله فى بقية الأغراض ، مصور موهوب ، خصب الخيال ، ثاقب الذهن ، واسع الاحاطة ، بارع الملاحظة ، عميق الفكرة ، دأبه فى الابانة والتعبير أن يبث الحياة والحركة فى كل ما يتناول من معنى ، وكل ما يؤلف من مشهد ، حتى إذا انبعث مواته ، وجاش ساكنه ، وتحرك جامده ،

أدار وحداته على ما تقتضيه الصناعة ، ويوجبه النسق وحسن الافتنان ، فاذا الأشباه تتلاقى والأضداد تتنافر ، والبعيد يدنو ، والغائب يتمثل ، والعواطف تتراءى ، والشائع يتميز ، بما يتوارد هناك من أمثال ، ويتلاحق من تشابيه ، ويفصل من حدود ، ويقوم من موازين . وإذا نحن تجاه معرض يموج بمشاهد حية من الشعر المتفلسف أو الفلسفة الشاعرة ، تستأثر بالانتباه ، وتحرك المشاعر ، وتمتع العقل والوجدان معا . وهذا مثلا قوله من قصيدة تعزية لعضد الدولة :

لا بد للانسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه ... وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هى من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس فى شرقه ... فشكت الأنفس فى غربه
يموت راعى الضأن فى جهله ... موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره ... وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه ... كغاية المفرط فى حربه
فلا قضى حاجته طالب ... فؤاده يخفق من رعبه

ومثل آخر من قصيدة يعزى فيها سيف الدولة :

خطبة للحمام ليس لها رد ... وإن كانت المسماة ثكلا
وإذا لم تجد من الناس كفوا ... ذات خدر أرادت الموت بعلا
ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ ... ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل ... حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب ... فاذا وليا عن المرء ولى
أبداً تسترد ما تهب الدنـ ... ـيا فياليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم ... وخل يغادر الوجد خلا
وهى معشوقة على الغدر لا تحـ ... ـفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها ... وبفك اليدين عنها تخلى
شيم الغانيات فيها فلا أد ... رى لذا أنث اسمها الناس أم لا

فمع اتحاد القصيدتين فى الموضوع ، واتحاد المقطعتين فى الغرض — استطاع أبو الطيب أن يعرض علينا هنا وهناك طائفة منوعة من الصور الحية رأينا فيها الحياة فى صميمها ، والانسان فى تشبثه بها ، وغفلته عن أحداثها ، وعن المصير الذى لا بد أن ينتهى إليه فى يومه الموعود وعندى أن هذه الحياة التى ينفخها المتنبى فى شعره ، وتوشك أن تكون خصيصة من خصائص

ذنه الكبرى هى اهم أسرار خلوده وسيرورة شعره فى الناس . فكثيراً ما يتناول المعنى الشائع أو المعنى الذى سبق إليه ؛ فيصنعه على طريقته ، ويطبعه بطابعه ، ثم يرسله فيتردد على كل لسان ، ويدخل إلى كل مكان .

أما أن الأستاذ الدكتور يضيق بطول القراءة فى شعره ، ولا يأنس إلا بتفاريق منه ، فما أظن أن الناس ولا كثيراً منهم يشاطره هذا الشعور ؛ فالرأى فى شعر المتنبى متعالم مشهور ، والاعجاب به أو بجملته يوشك أن يكون مجمعا عليه . وما أعرف شاعراً من شعراء العربية القدماء والمحدثين نال من سعة الشهرة ، وحفاوة الدرس والنقد مثل ما نال المتنبى . لقد سيطر على الحياة الادبية حياته ، وظل مسيطراً عليها بعد موته حتى خلفه أبو العلاء . وتوفر الأدباء والنقاد على درسه ونقده ؛ فأكثروا الدرس والنقد . وذهبوا فيه مذاهب شتى ، وكتبوا عنه من البحوث والمؤلفات ما لا يجتمع مثله لغير عظيم من عظماء التاريخ . ولا يزال البحث الأدبى إلى الآن حفيا به ، ماضيا فى استخراج ذخائره ، واكتناه مذاهبه ، وسيظل مذكوراً أبداً ما بقى للعربية وللثقافة والأدب وجود . على أن ضيق القارئ بشعر الشاعر ، أو انبساطه له — لا يعنى حتما أن الشعر معيب أو سليم من العيب ؛ فقد يعنى كذلك أن ثمة توافقا أو تخالفا بين الشعر ومزاجه ، أو بينه وبين ثقافته ، وفهمه للشعر ، وتصوره له ، ومطالبه منه . فليس إذاً يصح أن يحمل الشعر وحده تبعة ضيق القارىء به ، ولا أن يستأثر وحده كذلك بفضل الانبساط له ، وطول الاقبال عليه . فكلا الاحساسين لا ينبعث من جانب واحد ، ولكنه نتاج المجاوبة أو التنافر بين الشعر وقارئه . وهذا الاحساس الفرد الخاص لا يصلح على كل حال أن يكون مقياساً عاما لتقدير الاشعار والمفاضلة بينها والحكم لها أو عليها مهما يكن له من القيمة والشأن .

ألا رحم الله أبا الطيب المتنبى كفاء ما أسدى إلى العربية والثقافة من صنيع . لقد انتفع الناس بشعره كله نفعا كبيراً ؛ فاتخذوا من جيده ذخيرة لغوية غالية نقية ، وغذاء قيما ممتعاً للعقل والوجدان ، ومادة صالحة للرواية والتمثل والاستشهاد ، واتخذ العلماء من رديئه أمثلة يعرضونها فى دراسة البلاغة ؛ لتأثيل القواعد ، وتوضيح الفوارق ، وإقامة الموازين .

على النجدى ناصف